رجل عام ٧٧

بقلم : صبري أبو المجد

في الاسبوع الماضي ، وفي اقتناعية المصور قلت اجمالا ، لا تفصيلا وانا اتحدث عن إلسانات رجل عام ١٩٧٧ بالنسبة للعالم كله ورجل المرحلة من ١٩٤٨ الى اليوم بالنسبة للشرق الاوسط ، قلت : ان قضية الصراع العربي الاسرائيلي ذات طبيعة خاصة ، انها ـ مثلا ـ ليست من صنع الاسرائيليين وحدهم ولا العرب وحدهم ولا القوى الدولية الكبرى ، التي لها مصالح كبرى في عدم حل تلك القضية ، وانما هي خليقة من صنع اولئك جميعا. فالعرب الذين رفضوا التقسيم ، الذي كان يعطيهم من المناطق الفلسطينية اكثر مما يطالبون به اليوم ظلوا يعتبرون دولة اسرائيل ، ولسنوات عديدة ، اسرائيل المزعومة وظلوا ـ حتى على خلاف شديد بينهم ـ يعتبرون حكومة احمد حلمي باشا التي لم تكن تملك السيطرة الا على شقة واحدة في احدى عمارات القاهرة ، كانت تقيم فيها حكومة عموم فلسطين ، والعرب ، ظلوا سنوات وسنوات ، ينادون بتدمير اسرائيل ورمي الاسرائيليين في البحر . والعرب ايضا ظلوا لايعترفون باسرائيل كدولة من دول العالم ، وان اعترف بها العالم فيما عداهم هم ، كل هذا يحدث والعرب يخسرون كل جيل تقريبا ، المزيد من الارض ، والمزيد من الشهداء ، بينما اسرائيل تحصل على المزيد من الارض العربية بالطريقة الفيتنامية الغروية « بالسجق الروسي ان تاكل لقمة ضخمة ، ثم تظل فترة طويلة تمضغها ، وفترة طويلة اخرى تهضمها ، وبعد الهضم تاكل لقمة اخرى ، وهكذا . فالعرب اذن كانوا لا يجمعون على شيء ، فمن اجمالهم على عدم حل لقضية الصراع العربي الاسرائيلي حتى اولئك الذين لم يشتركوا يوما ما ـ بقي الكلام بالطبع ـ في المعارك التي تفرضها ظروف الصراع العربي الاسرائيلي ، ويوم ان تجرأ الحبيب بورقيبة ذات يوم ، ودعا العرب الى ان يكونوا ، واقعيين وان يقبلوا قرار التقسيم الذي رفضوه في عام ١٩٤٧ قامت قيامة العرب واسرائيل ضده :العرب انهموه بالخيانة العظمى ، اصدروا ضده حرمانه من جنسية القومية العربية والبعض بالغ كما هي العادة واهدر دم الشيخ الحبيب بورقيبة وكنا نحن في مصر خليقة اول من انهم بورقيبة بالخيانة العظمى، واول من دعا الى عقد مؤتمرات تدين موقفه واول من طالب باخراجه من حظيرة الجامعة العربية ! وكانت أعظم التهم التي توجه الى عربي ما ، ان عربي انه اجرى اتصالا مع الاسرائيليين ، او انه في يوم من الايام التقى في مكان ما ، حتى ولو كانت ردهات مبنى الامم المتحدة في وانسطون ، او جنيف لاي اسرائيلي ! ولذلك فقد شبت كل الاجيال العربية التي تعيش اليوم ، وكانت تعيش في الماضي على كراهية كل ماهو اسرائيلي من الشيخ الكهل الذي جاوز الثمانين حتى الطفل الصغير ، الذي لا يزال في الحضانة لايرى « البعبع » الذي يخافه ولا يخاف غيره ، في صورة اسرائيلي ، وحتى كانت الصورة التي يتخيل فيها حقيقة العقد بأجلى معانيه هي صورة الاسرائيلي ، اي اسرائيلي ، وكان غيرنا يعتبرنا غير متحضرين لاننا نقول ، مانقوله عن الاسرائيليين ولاننا نفعل ما نفعله تجاه الاسرائيليين ، وفي كل المؤتمرات والندوات بل ولجان الامم المتحدة وغيرها وغيرها كنا نرفض الاشتراك فيها لوجود اسرائيليين ، ثم عدلنا عن هذا الاتجاه : لاننا وجدنا انفسنا نخسر دائما ، بينما العدو ، هو الذي يكسب دائما ، وفي المؤتمرات التي كان السوفييت يسيطرون عليها كان الخلاف قائما، دائما ، بيننا وبين السوفيت ومن يدورون في فلكهم لاننا نقاطع الاسرائيليين وفي المؤتمر العالمي للصحفيين الذي تظمته النظمة الصحفية العالمية ، التي تسير في الفلك السوفييتي والذي عقد في هافانا ، تاخر انعقاد المؤتمر ساعات وساعات لوجود ممثل لاسرائيل رغم انه كان يمثل حزبا شيوعيا ينادي بتحرير الاراضي العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ واذكر اننا كنا نرفض حتى القاء السلام عليه بل كنا نتحاشى ان يضمنا وهو هاتفة واحدة او مصعد واحد : بل واكثر من هذا على المستوى الشخصي : في اكتوبر ١٩٦٠ كنت في نيجيريا اشارك في اعياد استقلال نيجيريا وتصادف ان كنت جالسا في ردهة فندق ، فيدرال بالاس في لاجوس اتصفح كتاب « نهاية اسرائيل » ، وكان غلافه صورة لجولدا مائير في صورة حطام ، وكنت امتع ـ ولا ازال ـ بهذا الكتاب لانه كان صورة من صور الواقعية حيث كان هدفه التاكيد على ان القوى العربية حتى ولو اجتمعت غير قادرة على ازالة دولة اسرائيل وان ازالة دولة اسرائيل ، لن تجيء الا من داخل اسرائيل ذاتها لان القوى الدولية الكبرى والمجتمع الدولي لايمكن ابدا ان يسمح بحدث ايا صورة من الصور ، وباي اسلوب من الاساليب بازالة اسرائيل حيث تضمنها على الاقل في عهود ١٩٤٨ الولايات المتحدة الامريكية ، وفرنسا وانجلترا ، وكل اوروبا وامريكا ! وفوجئت بوجود موشي ديان وابنته تامار ، وعدت الى الوراء سنوات وسنوات : عدت الى ايام الشباب المبكر ، حيث كنا نتخطى وبسهولة جنا من الجنود البريطانيين في شوارع القاهرة وقلت في نفسي : لماذا لا اقتله واريح العرب منه : لماذا لا انخلص من واحد من القيادات الاسرائيلية ؟ وبعد فترة من التروي وجدت ان تفكيري في هذا الامر قد بلغ درجة هائلة من السذاجة ! انني قد انخلص من ديان ، ولكن هل تخلصت وتخلص العرب من العقلية العسكرية الاسرائيلية ! انني قد انخلص عقبة من ديان وسوف ادفع حياتي بالقطع ثمنا لذلك ولكن ماذا سيستفيد العرب من تلك العملية وتراجعت بسرعة عما فكرت فيه وتركت الفندق ، حتى لا اراني وجه موشي ديان : وقد تذكرت القصة ايلها ، التي لازال حية في ذاكرتي وزوجاتي رغم مرور سبعة عشر عاما عليها ، وانا اصافح موشي ديان يوم الاحد الماضي في الاسماعيلية ، تذكرتها وابتسمت ، وان كنت قد عدت الى التفكير من جديد في تعداد الاسباب التي كانت تجعلنا جميعا ضد انهاء الصراع العربي الاسرائيلي رغم عدم قدرتنا ، على انهاء ذلك بالقوة !! وكما كان الامر بالنسبة للعرب ، كان الامر كذلك بالنسبة للاسرائيليين ، الاسرائيليون لايرغبون ابدا في تحقيق السلام حتى ولو رغب فيه البعض فانهم يرغبون في تحقيق « سلامهم» هم وحدهم : كانت الغطرسة لا حد لها : الاسرائيليون يتصورون انهم القوة العسكرية التي لاتقهر ..

هم سادة المنطقة في العالم وفي الاقتصاد وفي العرب وغيرهم في المنطقة ليسوا الا عبدا لهم !! يريدهم ابدا التعايش مع ابناء المنطقة طالما في ايديهم المال الامريكي والسلاح الامريكي ! انهم لايتصورون ابدا الحق العربي بل انهم لايؤمنون الا بأن المنطقة كلها لهم وانهم وحدهم القادرون على تطوير وتاجيج الحرب فيها وبرهم في المنطقة لايجب الا ان يكونوا شرطة مجرد شرطة ، الاساطيل القذيفة «من النيل الى الفرات » هي التي تغذيهم روحيا والكيبات الرهيبة من السلاح الامريكي التي تصلهم بلا ثمن ، هي التي تجعل منهم اصحاب اليد الطويلة في المنطقة : اليد التي تبطش اذا ارادت باية دولة مجاورة واليد التي تحافظ على المصالح الامريكية في المنطقة خرجت عن الطوق واليد التي تحافظ على المصالح الامريكية في المنطقة ـ كل المصالح الامريكية

السادات

في المنطقة من ان تمتد اليها يد عربية ، وقد كانت اسرائيل — كل اسرائيل — تضحك من آيبى نائان الرجل ، الذى كانوا ، وكنا نسميه يوما ما : مجنون سلام : كان الرجل في تفكيره — مع الفارق — شبيه بنائب هتلر ، رودلف هيس ، الذى ذهب الى بريطانيا في عنفوان حربها ضد المانيا ، يطلب السلام !! وان كان حظ ايبى نائان اسعد من حظ هيس فلقد قبضوا على هيس ورفضوا حتى الافراج عنه بعد نهاية الحرب العالمية وقضى في السجن اقصى فترة قضاها اى سجين في العالم ، كان ايبى نائان موضع سخرية الاسرائيليين ، بل والعرب ايضا لا لشيء الا لانه يتصور قيام سلام بين العرب واسرائيل !!

●

ولو ان اسرائيل حقيقة كانت ترغب في السلام لتحقق السلام منذ سنوات عشر : لو ان اسرائيل — مثلا — بعد ان انتصرت ذلك الانتصار الاسطورى في حرب ١٩٦٧ واحتلت كل تلك الاراضي العربية التي احتلتها في سيناء ، وغزة ، والضفة الغربية عادت الى الحق ، وقالت : انا لا اريد الارض ، وانما اريد السلام : هذه ارضكم فخذوها ، ولكن على شرط ان يتحقق السلام . وان يضمن المجتمع الدولي هذا السلام . كما كانت اسرائيل تستطيع في ذلك الوقت ، بالذات ، ان تحقق السلام ، ولكن القادة الاسرائيليين ، لم يكونوا يريدون ابدا السلام : كانوا يريدون المزيد من الارض والمزيد من ازلال الخاسر بالعرب ! وضاعت الفرصة الوحيدة ، التي لاحت لتحقيق السلام في المنطقة منذ عشر سنوات ضاعت لان الجانب الاسرائيلي الذى اسكرته خمرة النصر ، رفض ان يتنازل عن بوصة واحدة من الاراضي التي احتلها بعد ١٩٦٧ ، الى الدرجة التي جعلته يشترط ، لامكانية اعادة افتتاح قناة السويس ، ان يكون له نصف مياه القناة ، وبالتالي ، نصف دخل القناة ، او ليس هو الذى يسيطر على احدى ضفتي القناة؟ وعندما رفض اقتراحه هذا فكر في شق قناة جديدة في سيناء ليحرم المصريين من قناتهم ، متقدرين ان الفرع ، وهو ان الارض التي احتلت بعد ١٩٦٧ ، هي ارض اسرائيلية !!

●

وربما كانت المرة الوحيدة التي فكر فيها رجل الشارع الاسرائيلي — ولا اقول الحكومة الاسرائيلية — في تحقق السلام بصفة دائمة وبصورة كاملة بعد حرب ٧٣ انه كان رجل الشارع الاسرائيلي يثق في قيادته ، الى ابعد الحدود : حتى بعد ان اجتاح الجيش المصرى قناة السويس وخط بارليف وكسب اخطر معارك الدبابات في التاريخ ، كان رجل الشارع الاسرائيلي يثق في ان النصر سيكون حليفه ، وان حكومته لا تزال مسيطرة على الوقف وان كل هذا الانسحاب من الجانب الاسرائيلي ليس الا خدعة ، سوف تنكشف فيها بعد ! ثم تاكد رجل الشارع الاسرائيلي بعد ذلك ان الامر ، ليس خدعة كما تصور ، وان الكيان الاسرائيلي كله قد اصيب بزلزال عنيف جعله يعود ، الى الصواب : ويفكر — ولاول مرة وبصورة واقعية — في سلام دائم !

●

والحقيقة والامانة التاريخية ، اقول ان انور السادات منذ ان آل اليه الامر ، بعد وفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، طيب الله ثراه ، كان يريد تحقيق السلام القائم على الحق ، والعدل ، وطوال الفترة ، التي امتدت من ١٦ اكتوبر ١٩٧٠ حتى ٦ اكتوبر ١٩٧٣ والرجل حقيقة لا يكف ابدا عن اظهار نواياه الطيبة واعلان تمسكه بالسلام ، ورغبته الاكيدة في عدم خوض اية حرب اذا امكن تحقيق السلام القائم على الحق ، والعدل ، بدون تلك الحرب . وكانت مراكز القوى تعتمد على تلك النقطة — نقطة رغبة السادات في تحقيق السلام — لمهاجمته اشد هجوم ، عندما كانت مسيطرة على كل مراكز القوة في مصر وكان الرجل — وهذه شهادة حق للتاريخ — رغم انه لم يكن يملك الا السلطة الشرعية ومحبة جماهير الشعب له . لم يكن يتردد او ليتراجع ، قيد انملة واحدة ، عن المطالبة بتحقيق السلام القائم على الحق والعدل : بل انه كان يضحي في تلك الفترة باغلى التضحيات حتى لا تقوم الحرب ، وحتى يتحقق السلام القائم على الحق والعدل بدون حرب !!

●

— في اول بيان ، للرئيس انور السادات — في مجلس الامة — بتاريخ ٧ اكتوبر ١٩٧٠ . عرض الرئيس السادات مجموعة من النقاط رأى ان لها اهمية خاصة من بينها مثلا — تعزيز القدرة القتالية للقوات المسلحة ، المصرية لتكون حماية للسلام القائم على العدل ، او اداة لفرضه اننا في صراع مع اسرائيل والصهيونية الدولية والاستعمار العالمي : صراع مصيرى لا يستهدف الغزو .. ولكن يطلب الامن .. لا يستهدف السيطرة ولكن يطلب الحرية ، لا يستهدف الحرب ، للحرب ، ولكن يطلب السلام ، كما نجب ان يكون السلام »

●

● في خطاب القاه انور السادات في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر القومى « ١٢ نوفمبر ١٩٧٠ » اوضح الرئيس ترحيبه بالفهم للسلام ، القائم على العقل الذى بدا اخيرا من وزير خارجية بريطانيا ، في تصريحه بشان الانسحاب وتفسيره لقرار مجلس الامن . يترحب به ويقول ان احنا والله مفتوحين القلب والعقل بس لسلام قائم ، على العدل مش فرض السلام ، او الاستسلام عليانا : احنا لا نزال حتى هذه اللحظة نريد السلام ، ولكننا نرفض الاستسلام ! »

● وفي البيان ، الذى القاه الرئيس انور السادات في جلسة الامة — الجلسة الافتتاحية — بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٩٧٠ : آفدس المبادىء جميعا سلامة الاوطان فان التنازل عن اى شيء يعني التنازل عن كل شيء ، ونحن نريد سلامنا ولن نربط سلامنا بشيء غير العدل وحده لكن السلام ، اذا لم يرتبط بالعدل لا يصبح سلاما ، انما يصبح قبولا بالامر المفروض بقوة العدوان وهو مالا نستطيع ان نقبله : اننا لا نساوم ولا نتاجر ولا نزايد : نحن طلاب سلام ، قائم على العدل وفي نفس الوقت نحن ايضا حماة سلام قائم على العدل » .

●

● وفي خطاب موجه الى الرئيس اليوغوسلافي تيتو « ١٤ فبراير ١٩٧١ » اوضح انور السادات وجهة نظره في السلام فقال : انت ايها الصديق اول من يعرف اننا نطلب السلام ، ولكننا لا نطلب السلام باى ثمن لان طلب السلام باى ثمن صورة اخرى من صور الاستسلام للامر الواقع : ان السلام لا يفرض ، وحينما يتحدث غيرنا عن فرض السلام ، فمعنى ذلك في الواقع ، انهم يتحدثون عن الحرب : لان السلام ينبع من القلوب ، ولا يصدر عن فوهات المدافع : ان السلام ليس ضم الاراضي ، وليس الاحتفاظ بمواقع استراتيجية وليس اهدارا للحقوق الشرعية الوطنية والدولية ، ان السلام يفقد روحه ومعناه ، بمثل ذلك كله » .

●

● وفي لقاء الرئيس السادات بالاخوة الفلسطينيين — في افتتاح دورة المجلس الوطني الفلسطيني ٢٨ فبراير ١٩٧١ . اوضح الرئيس السادات وجهة نظر مصر ، التي لم

رجل عام ٧٧

تشا ان تضع اى قيد على حركتها السياسية غير قيدين ، اثنين . الاول هو الانسحاب من كل الاراضى العربية المحتلة ١٩٦٧ . الثانى : هو الاصرار على حقوق شعب فلسطين ، كما تحددها قرارات الامم المتحدة واوضح ايضا وجهة نظر مصر : نحن لا نريد ان نسترضى احدا ، ولا نريد لاحد ان يسترضينا .. لا نريد ان نفرض وصاية على احد ولكننا فى نفس الوقت لا نقبل وصاية من احد، نريد ان نكون عظما منسرنا قائما، على استراتيجية متفق عليها منتوحا للتحرك السياسى ، على اساس من الثقة المطلقة ، اما اننا نثق فى معضنا او اننا لانثق : اما ان نثق فى بعضنا او لا نثق . ويوضح الرئيس السادات ـ وكان هذا الكلام منذ أكثر من ست سنوات ـ وجهة نظر مصر ، بصراحة ووضوح للاخوة الفلسطينيين : اريدكم ان تعرفوا بوضوح انه ليس هناك شىء اسمه حل مصرى او حل فلسطينى او حل سورى او حل اردنى ، وانما هناك حل واحد ، وهو الحل العربى ، وعلينا فيما يتعلق بنا فاننا رفضنا الحل الجزئى وكان مناحا لنا باستمرار ذلك لاننا نعتقد انه لايمكن ان يكون هناك حل جزئى لعدوان وقع على امتنا كلها ولم يستهدف قطرا واحدا من اقطارها ! » .

● فى ٤ فبراير ١٩٧١ تقدم الرئيس انور السادات بمبادرة جديدة تشير الى امكانية فتح قناة السويس للملاحة لخدمة السلام فى مقابل انسحاب جزئى للقوات الاسرائيلية وقد اعلن الرئيس السادات فى أول مايو ١٩٧١ أن الانسحاب الجزئى المقترح وفقا لتلك البادرة ليس حلا منفصلا ، ولاهو «حل جزئى» وانما هو تحريك اجرائى يرتبط ارتباطا عضويا بالحل الكامل ، واوضح الرئيس السادات مرة اخرى ـ امام مجلس الشعب فى ٢٠ مايو ١٩٧١ ـ الهدف من مبادرته ٤ فبراير فقال انها اختبار سلام ، واذا كانت النوايا صحيحة نحو السلام ، يبقى كلامنا يفهم ، وينفذ اما اذا كانت النوايا غير مؤكدة للمراوغة او لمحاولة تمييع القضية واتخاذ فتح قناة السويس اسلوبا لتجميد القضية لسنين جاية انا قلت لكم احنا نردم قناة السويس أحسن وقال الرئيس السادات أيضا انه طلب من روجرز ان يبلغ الرئيس الامريكى نيكسون اذا كان يريد حقا سلاما أن يمحر اسرائيل عصرا ، اذا كانوا يريدون السلام فنحن للسلام انا لا تعنينى اسرائيل لان اسرائيل لـه راكبها غرور الانتصار ، ولـه راكبها الغرور النازى ، ويحاولوا لسه يعيشوا فى أحلام ، واوهام الماضى » وفى خطاب للرئيس السادات القاه فى مجلس الشعب (١١ نوفمبر ١٩٧١) أكد سيادته على ان الانسحاب ، الذى يبغيه ليس الانسحاب من الارض المصرية وانما الانسحاب من الاراضى العربية المحتلة بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ واكد الرئيس السادات اكثر من مرة على ان شعب مصر ملزم بمبدأين اثنين لا مناقشة فيهما : لا تفريط فى شبر من الارض العربية المحتلة ولا مساومة على حقوق شعب فلسطين وعندما التقى الرئيس السادات مع الضباط والجنود المصريين فى اسوان (٣٠ يناير ١٩٧٢) اعلن انه بعد ان اجرى اتصالات مع الامريكيين لتحقيق السلام فى المنطقة فى ٢٤ ديسمبر ١٩٧٠ . قد قطع تلك الاتصالات فى اكتوبر ٧١ بعد ان تاكد له ان الامريكيين ، لا يريدون السلام : وان كل همهم الا تكون مصر قوية ، والا تخرج مصر من المعركة منتصرة وبعد ان اعلن الرئيس السادات قطع الاتصالات مع الولايات المتحدة الامريكية اعلن فى نفس الوقت انه فقد أى امل فى الحل السلمى وانه ابلغ القوات المسلحة بضرورة التاهب للمعركة ، الفاصلة وانه قد حدد ساعة الصفر عندنا فى الوقت الذى كانت فيه الحرب ، الباكستانية ، الهندية تشتعل ، الامر الذى دفعه الى ان يؤجل ساعة الصفر وان لم يؤجل ، المعركة ، وفى الجلسة الافتتاحية لمجلس الشعب (١٥ اكتوبر ١٩٧٢) اعلن الرئيس السادات اننا لم نترك محاولة الا وجربناها ولا بابا الا وطرقناه ، ولا اقتراحا الا واصغينا اليه كاحسن ما يكون الاصغاء راغبين بصدق ، فى السلام ، غير مشترطين للسلام ، الا ضمانا واحدا ، يمكن بعده ان يكون هناك سلام ، هو ضمان العدل وفى خلال عام ١٩٧٢ اجرى الرئيس السادات اتصالات مع الخمسة الكبار ومع الاوربيين الغربيين ، والشرقيين ودول عدم الانحياز ، والافارقة ، من اجل تحقيق السلام ، ولكن كل باب فتحته صفقته اسرائيل فى وجهى وانتم ايها الامريكيون تباركون الاسرائيليين ! ..» وتحدث الرئيس السادات فى عيد العمال ، اول مايو ١٩٧٢ فاشار الى ان الحل «الامريكى للسلام ليس الا خرافة : خداع ، وسراب . كما اكد الرئيس السادات ايضا فى نفس الخطاب على انه « لا حل منفرد » وبعد بضعة اسابيع ، اعلن الرئيس السادات ، انه لا مبادرات سلمية جديدة ، من جانب مصر .

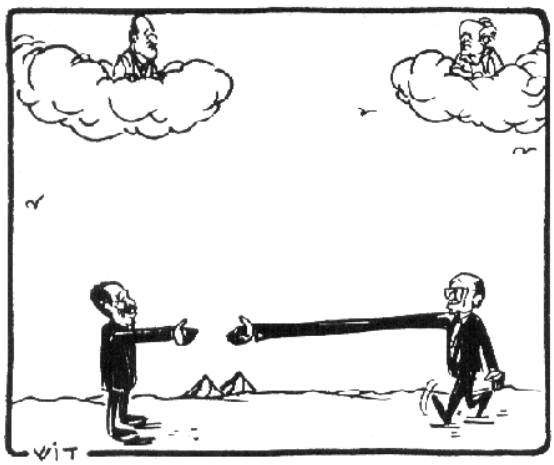

لقاء السادات وبيجن كما تراه صحيفة « معاريف » الاسرائيلية

●

وفى آخر خطاب القاه السادات قبل بدء معركة اكتوبر . الخالدة فى ذكرى عبد الناصر (٢٨ سبتمبر ١٩٧٣) ولاول مرة لم يشا ان يشير الى جهوده من اجل تحقيق السلام ، كما انه لم يشا ان يشير الى المعركة سوى بكلمة واحدة : هناك موضوع ربما تلاحظون انني لم اتكلم عنه وهو المعركة ولقد قصدت ذلك قصدا لقد سمعنا كلاما ، اريد ان اقول شيئا واحدا ، نحن نعرف هدفنا ونحن مصممون على بلوغه ، وليست هناك جهود لا نبذلها ، او تضحيات لا نقدمها، لتحقيق هدفنا ! الم يتحدث الرئيس السادات عن السلام فى الخطاب الذى القاه قبيل نشوب حرب اكتوبر ١٩٧٣ وانما تحدث عن السلام فى قمة انتصاره فى حرب اكتوبر .. تحدث عن السلام فى يوم ١٦ اكتوبر ٧٣

« والحديث بقية »